الفصل الأول

اسدود

توطئة تاريخية عامة

توطئة تاريخية عامة

قبل الحديث عن تاريخ اسدود المحلي، من المفيد أن نتطرق إلى عجالة تاريخية عن فلسطين ليسهل على القارئ أن يفهم تاريخ اسدود وأهميتها في محيطها الأكبر، وتكون الصورة أكثر وضوحا. إن الموقع الجغرافي لفلسطين، والسمات السطحية (الطبوغرافيا)، ومقدراتها الاقتصادية، ساعدت جميعها على إيجاد ظروف خاصة كان لها التأثير الكبير على الأحداث التاريخية التي شكلت تاريخ فلسطين في جميع العصور قديمها وحديثها، ويمكن تلخيص هذه الظروف والعوامل فيما يلي:

**أولا:** إن موقع فلسطين بين بلدين يتمتعان بظروف اقتصادية ممتازة ، ساعدت على قيام قوتين عظيمتين وحضارتين من أقدم حضارات العالم من آلاف السنين وهما:حوض النيل (مصر)، وحوض الرافدين (دجلة والفرات) العراق، فقامت في هذين البلدين امبراطوريات قوية لها حضاراتها المزدهرة.

كانت هاتان القوتان في صراع مستمر على بسط نفوذهما على الأراضي الواقعة بينهما. وهكذا كانت فلسطين ميدانا لالتقاء جيوشهما المتحاربة. إن الطرق التجارية التي كانت تمر في فلسطين وتربط بين هذين المركزين الحضاريين أكسب فلسطين أهمية سياسية خاصة. وهكذا تولدت لدى كلا القوتين رغبة شديدة للسيطرة على تلك الطرق. فأصبحت فلسطين مثارا للنزاع بينهما، وبالتالي تداولتا السلطة بينهما في البلاد مما حال دون قيام كيان سياسي مستقل فيها لفترة طويلة، إلا في حالة ضعف هاتين القوتين، وعجزهما عن فرض سيطرة تامة على البلاد، كما سيتضح ذلك فيما بعد.

**ثانيا:** إن موقع فلسطين على الحدود بين الصحراء جنوبا وشرقا وبين الأراضي الزراعية من جبال وسهول خصبة شمالا وغربا، جعل البلاد مسرحا للصراع الدائم بين سكان هاتين المنطقتين من قبائل رحل في البادية وسكان مستقرين في الأراضي الزراعية وبالتدريج كان يتم استيعاب الرحل ويصبحون مزارعين مستقرين.

وهكذا تتكرر الدورة التاريخية على مدى العصور.

**ثالثا:** إن موقع فلسطين على الساحل الشرقي للبحر المتوسط جعلها أيضا عرضه لغزو بحري من قبل شعوب بحرية من أوروبا، مثل قدوم "الباليستا" من جزر بحر أيجة، والغزو الأوروبي في العصر الحديث- الحروب الصليبية ثم الاستعمار البريطاني والفرنسي وأخيرا الصهيونية.

**رابعا:** نظرا للعوامل المذكورة أعلاه، فإن مراكز التجمع السكاني تركزت في المناطق الجبلية شرقا وشمالا، وفي السهل الساحلي والأودية الداخلية. كما يلاحظ أن الأقوام القادمة من الغرب كانت على درجة عالية من المهارة الفنية، ولديهم خبرة بالملاحة البحرية، والتجارة والعمران، مما ساعدها على تحويل مركز الثقل السياسي والسلطة إلى السهل الساحلي، كما فعل الفلسطينيون (الباليستا) والفينيقيون واليونان والرومان.

في ضوء هذه العوامل، يسهل علينا الآن سرد موجز لتطور الأحداث التاريخية التي كانت فلسطين مسرحا لها على مدى عصور مختلفة. ففي العصر البرونزي الذي استمر حوالي (1800) عاماً (3000-1200 ق.م)، نشر الأكاديون نفوذهم من بلاد الرافدين حتى شواطئ البحر المتوسط. بينما امتد نفوذ الفراعنة السياسي والتجاري إلى مدن الساحل الفلسطيني واللبناني. كما تمكنت مصر الفرعونية في هذه الحقبة من بسط سيطرتها على الطريق الساحلي للتجارة الدولية، المار بفلسطين، بين مصر وبلاد الرافدين.

وفي القرن القرن الثامن عشر قبل الميلاد (ق.م.) اجتاحت موجات هجرة عارمة قادمة من بلاد آسيا الصغرى كلاً من سوريا وفلسطين وامتدت إلى مصر، وهم ما يعرفون بالهكسوس، وهزموا جميع أعدائهم نظرا للسلاح الجديد الذي كان بأيديهم، أي العربات التي تجرها الخيول بسبب اختراع العجلة، فأصبحت جيوشهم تتفوق على أعدائها بسرعة الحركة في المعارك. واستمر نفوذهم السياسي في مصر وفلسطين وسوريا حوالي مئتي عام.

وحين استردت مصر قوتها وحررت بلادها من احتلال الهكسوس، طاردتهم في فلسطين وسوريا إلى أن قضت على نفوذهم تماما. وفي عهد الفرعون تحتمس الثالث (القرن 15ق.م) فرضت مصر سيطرتها شمالا حتى نهر العاصي، وأقامت فيها إدارة مصرية لجباية الضرائب وإرسال كميات كبيرة من الحبوب والفواكه والأخشاب والمعادن إلى مصر.

ولكن في القرن الرابع عشر ق.م. ضعف نفوذ مصر فأخذت تفقد سيطرتها الخارجية نظرا لانشغال حكامها بأمورها الداخلية، ولازدياد نفوذ الحثيين في آسيا الصغرى وتحريضهم للحكام المحليين على الاستقلال عن مصر. وقد حاول الفرعون رمسيس الثاني أن يستعيد النفوذ المصري في سوريا لكنه لم يحقق نصرا حاسما واكتفى بعقد معاهدة مع الحثيين جعلت من نهر اليرموك حدودا بين الدولتين المتنافستين.

في هذه الظروف السياسية المضطربة (القرن الثالث عشر ق.م) تعرضت فلسطين لغزو خارجي من الشرق (العبرانيون) ومن الغرب (أقوام الباليستا من بحر آيجة). وبعد أن هزم رمسيس الثالث أقوام الباليستا ومنعهم من دخول مصر، توجهوا نحو السواحل الجنوبية لفلسطين وتمكنوا من اتخاذ عدة مراكز لهم على الساحل كقواعد عسكرية أهمها: غزة، عسقلان، اسدود وكذلك عقرون وجت في الداخل قليلا. والجدير بالذكر أن هذه المراكز كانت كنعانية ولكن الفلسطينيين وسعوها وحصنوها. وقد جلبت هذه الأقوام معها المركبات الحديدية، وهكذا دخلت فلسطين العصر الحديدي. وإلى هذه الأقوام ينسب تسمية البلاد فيما بعد بفلسطين.

أما العبرانيون فاستقروا في المناطق الجبلية وفشلوا في مد نفوذهم إلى السواحل، حتى في أوج قوتهم زمن داود وسليمان، ظل الساحل الجنوبي من يافا إلى غزة تحت سيطرة الفلسطينيين كما ظل الساحل الشمالي ما بين الكرمل وصور وصيدا تحت سيطرة الفينيقيين.

وفي القرن التاسع ق.م. ضعفت مصر، وأخذ النفوذ الأشوري في الصعود. فقام الأشوريون بقيادة سرجون الثاني بتصفية الجزء الشمالى من الدولة العبرانية ، سنة 722 ق.م, وتابعوا انتصاراتهم على فراعنة مصر. ثم جاء دور البابليين فغزوا سوريا وفلسطين بقيادة نبوخذ نصر الذي قضى على الدولة اليهودية في الجنوب، واحتل القدس ودمر المعبد، وأسر أعدادا كبيرة من سكانها واصطحبهم إلى بابل. وهذا ما يعرف في التاريخ بالسبي البابلي عام 586 ق.م.

إن فترة الازدهار البابلي لم تستمر طويلا. ففي سنة 539 ق.م. صعد نجم فارس وسيطر كورش على بلاد بابل وتمت بينه وبين اليهود هناك صفقة يتعهد بموجبها بإعادتهم إلى فلسطين مقابل أن يساعدوه في مشروعاته التوسيعة في سوريا تمهيدا للزحف على مصر. لكن هذا التوسع الفارسي لم يعمر طويلا. وخلال هذه الحقبة التاريخية سيطر الأنباط على جنوب فلسطين ما بين البحر الميت وغزة. كما احتفظ الفلسطينيون بسيطرتهم على السهل الساحلي، بل وازداد شأنهم قوة ونفوذا.

وفي القرن الرابع قبل الميلاد (332 ق.م.) اكتسحت جيوش الإسكندر المقدوني منطقة الشرق بكاملها وقضى على النفوذ الفارسي وانتشرت الحضارة الإغريقية. وبعد وفاته قسمت الإمبراطورية، فكانت مصر من نصيب البطالمة (البطالسة) وبلاد الرافدين وسوريا أصبحتا تحت حكم السلوقيين. أما فلسطين فكانت أولا ضمن أملاك البطالمة ثم في سنة 200 ق.م دخلت في حوزة السلوقيين. وبالتدريج ضعفت الدولتان بسبب الحروب والنزاعات الداخلية،وتهيأت الظروف المناسبة لصعود نجم روما السياسي فغدت قوة عالمية وتمكنت من القضاء على الدولتين البطلمية والسلوقية، واستولت على أملاكهما في الشرق. وهكذا أصبحت فلسطين ولاية في الإمبراطورية الرومانية. خلال هذه الفترة تمرد اليهود عدة مرات ضد سلطة روما وكانت آخرها في القرن الثاني بعد الميلاد، ولكن الإمبراطور تراجان تمكن من إخمادها ودمر القدس تدميرا شبه كامل. وتشتت سكانها في جميع أصقاع الإمبراطورية.

وفي القرن الثالث الميلادي اتخذت روما المسيحية دين الدولة الرسمي، وبدأ عهد جديد من تاريخ فلسطين، فازداد عدد السكان وازدهرت الحياة الاقتصادية والعمرانية. وفي عام 395 م انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية (الدولة البيزنطية) وعاصمتها بيزنطية أو القسطنطينية وغربية وعاصمتها روما. فكانت فلسطين ضمن أملاك الدولة البيزنطية وأصبحت المسيحية ديانة الغالبية العظمى لسكانها. وانتعشت التجارة وانتشر التعليم والفن المعماري وخاصة في بناء الكنائس وذلك في عهد الإمبراطور جوستنيان (527-565 م). وبعد وفاته ضعفت الدولة البيزنطية ونجح الفرس في بسط نفوذهم على سوريا بما فيها فلسطين (614-628 م). ولكن الإمبراطور هركليوس (هرقل كما عرفه العرب) استطاع في عام 627 م أن يهزم الفرس ويدحرهم عن البلاد، ويدخل القدس عام 628 م. وهذا ما تنبأ به القران الكريم وبشر المسلمين به في سورة الروم (الآيات 1-4).

لم يستمتع الإمبراطور هرقل طويلا بهذا النصر، إذ تم الفتح الإسلامي المؤزر لفلسطين وسوريا بعد انتصارالمسلمين الحاسم في معركة اليرموك عام 637 م وتسليم مفاتيح القدس للخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه سنة 638 م. وبعدها تابع عمرو بن العاص فتوحاته وخاصة تقدمه نحو مصر وفتحها.

أما دمشق فأصبحت مركزا لحكم بلاد الشام ثم عاصمة للدولة الأموية. وقام أحد الخلفاء الأمويين –سليمان بن عبد الملك ببناء مدينة الرملة بفلسطين تمهيدا لاتخاذها عاصمة له. ونعم جميع السكان، مسلمين ومسيحيين ويهود وغيرهم، بالرخاء والأمن حتى فترة الحروب الصليبية (1099-1291 م) التي عانى فيها السكان جميعهم من فظائع الحكم الصليبي إلى أن أحرز المسلمون النصر بقيادة صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين عام 1187 م وتحررت القدس ومعظم البلاد حتى جاء المماليك وأكملوا تحرير باقي البلاد من الحكم الصليبي وخاصة في عهد السلطان الظاهر بيبرس في معركة عين جالوت المشهورة عام 1260م، والتي أوقفت زحف المغول وأنقذت العالم الإسلامي وأوروبا من أخطار المغول المدمرة. وأخيرا نجح المماليك في القضاء على آخر معاقل الصليبين في فلسطين، وهي مملكة عكا سنة 1291 م.

وفي القرن السادس عشر، انتصر الأتراك العثمانيون بقيادة السلطان سليم الأول (1512-1520) على السلطان المملوكي قانصوه الغوري في معركة مرج دابق عام 1516 ، في شمال سوريا، ثم تابع العثمانيون زحفهم جنوباً صوب مصر ، وانتصروا في معركة الريدانية عام 1517 على طومان باي ، آخر سلاطين المماليك في مصر ، وبذلك بسطوا نفوذهم على بلاد الشام ومصر وقضوا على سلطنة المماليك.

وأصبحت فلسطين من أملاك الدولة العثمانية، وفي عهد السلطان سليمان القانوني (1520-1566) عم الأمن والرخاء وانتعشت الحياة الاقتصادية والنهضة العمرانية وتم بناء أسوار القدس.

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر أخذ الضعف يدب في جسم الدولة العثمانية، وأخذ حكام الولايات لا يهمهم إلا جمع الضرائب، وتكديس ثرواتهم على حساب الفلاحين دون رحمة أو شفقة أو تطبيق قانون عادل. هذه الظروف ساعدت بعض الزعماء المحليين على أن يفرضوا سيطرتهم على بعض المناطق مع مراعاة السلطة الاسمية للسلطان العثماني.

ومن هؤلاء ظهر عدد كبير في ولايات الشام ومن أشهرهم الشيخ ظاهر العمر الزيداني (1689-1775) الذي اتخذ عكا عاصمة له وامتد حكمه من الجليل وصيدا شمالا حتى يافا والرملة وغزة جنوبا. وفي عهده عاشت البلاد في أمن ورخاء وانتعشت الزراعة والتجارة المحلية والدولية وأقام علاقات مع دول أوروبية وتحالف مع حاكم مصر على بيك الكبير. هذا الاستقرار في عهد ظاهر العمر شجع كثيرا من الجاليات المسيحية واليهودية بالهجرة من أماكن متعددة إلى فلسطين للإقامة في ظل حكم عادل واقتصاد مزدهر.

وبعد ظاهر العمر حكم البلاد أحمد باشا الجزار باسم الدولة العثمانية وكان حاكما متعسفا ظالما بطش بالفلاحين وكان لديه جيش قوي، وزاد في تحصينات عكا التي بدأها ظاهر العمر. وهي التي فشل نابليون بقواته الحديثة أن يخترقها ويفتح المدينة وبذلك تبخرت مشروعاته الاستعمارية أمام أسوار عكا سنة 1799.

وفي القرن التاسع عشر، بدأت تظهر الأطماع الاستعمارية في ولايات الدولة العثمانية. وفرضت على السلطان اتخاذ إصلاحات تسمح لهم بتنفيذ خططهم التوسّعيّة، واستثماراتهم الاقتصادية، وهكذا صدرت قوانين الأراضي وحماية الأقليات غير الإسلامية، والإصلاح الدستوري، فأزداد تغلغل النفوذ الأجنبي في البلاد تحت غطاء الإرساليات التبشيرية، وفتح القنصليات الأوروبية في بلاد الشام وخاصة في القدس. هذه السياسة هي التي تبلورت في مؤتمر لندن 1840، الذي قرر الوقوف أمام مشروعات محمد علي (حاكم مصر) التوسّعيّة على حساب الدولة العثمانية، لأنهم رأوا في نجاحه خطرا على أطماعهم، فتظاهروا بمساعدة السلطان ضد محمد علي، وأحبطوا جميع خططه. ومن هذا المدخل أصبح الميدان مفتوحا على مصراعيه لتنفيذ مشروعهم الاستعماري الكبير.

وحين قامت الحرب العالمية الأولى (1914-1918) وانحازت الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا، وجدت بريطانيا ضالتها فتحالفت مع الصهاينة ومنحتهم وعد بلفور 2 نوفمبر 1917، أي قبل أن تحتل قواتهم شبرا واحدا من أرض فلسطين. أما العرب فقد خدعتهم بريطانيا وفرنسا بتحالف وهمي يصب في مصلحتهما. وانتهى الأمر بتقسيم البلاد العربية بين بريطانيا وفرنسا دون أي اعتبار لوعودها التي قطعتها للعرب. وبينما أكملت قوات بريطانيا احتلال القدس وجنوب فلسطين حتى يافا في ديسمبر 1917، فإنها لم تحتل باقي فلسطين ألا في أكتوبر 1918.

وأخيرا، ففي سنة 1922 عهدت عصبة الأمم إلى بريطانيا بالانتداب رسميا على فلسطين وأدخلت وعد بلفور في صلب صك الانتداب، لتلزم بريطانيا دوليا بما جاء في وعد بلفور وذلك بتسهيل جميع الظروف اللازمة لتنفيذ الوعد، وإقامة الكيان الصهيوني على حساب السكان الأصليين عرب فلسطين. وهكذا وضعت الأساس للنكبة التي حلت بعرب فلسطين سنة 1948 واغتصاب وطنهم وتشريدهم في أصقاع الدنيا... وهكذا نصل إلى اسدود وتاريخها الحديث، وحياة أهلها اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا قبل النكبة.